

إستراتيجيات التأدب في مسرحية (منمنمات تاريخية) لـ(سعد الله ونوس)

د. واعد معاذ حسن *

(تاريخ الإيداع ١٤/١٠/٢٠٢٥. قُبل للنشر في ٢/١٢/٢٠٢٥)

□ ملخص □

يُعالج هذا البحث توظيف نظرية التأدب في تحليل الخطاب المسرحي عند (سعد الله ونوس)، وذلك بدراسة مسرحية (منمنمات تاريخية) بوصفها نموذجاً يجسد العلاقة بين اللغة والسلطة في سياق اجتماعي وسياسي متأزم، وينطلق البحث من الإطار النظري لإستراتيجيات التأدب كما صاغتها (لاكوف)، و(ليتس)، و(براون) و(ليفنسن)، لكي يطبقها على النص بغية الكشف عن آليات التواصل بين الشخصيات، وتمثلها إستراتيجيات التأدب الإيجابي، والتأدب السلبي، والإستراتيجية المباشرة، وغير المباشرة، ويحاول التحليل تبين أن التأدب في المسرحية يتجاوز بعده اللغوي إلى بعدٍ دراميّ يكشف عن بنية القهر والتواطؤ والمقاومة، ويبرز كيف تتحوّل اللغة إلى أداة نقدية تواجه الخطاب السلطوي وتعيد تشكيل الوعي الجمعي، وتحاول الدراسة-أيضاً- أن توضح كيف أن (ونوس) يوظف اللغة المسرحية بوصفها فعلاً ثقافياً مقاوماً، يزاوج بين الجمالي والسياسي في آنٍ واحد.

الكلمات المفتاحية: التأدب، الإستراتيجيات، منمنمات تاريخية، سعد الله ونوس.

*حاصل على شهادة دراسات عليا (دكتوراه) - قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طرطوس - سورية - عنوان الإقامة: طرطوس، حي الجمعية السكنية، شرق فرع المرور .

"Politeness Strategies in the Play “Munamnamat Tarikhiyya” by Saadallah Wannous”

D.R. Waed Moaz Hassan *

□ ABSTRACT □

(Received 14/10 /2025. 2 /12/2025)

This study addresses the application of politeness theory in analyzing the theatrical discourse of (Saadallah Wannous), through an examination of his play (Munamnamat Tarikhiyya) as a model that embodies the relationship between language and power within a tense social and political context. The research draws on the theoretical framework of politeness strategies as formulated by Lakoff, Leech, and Brown & Levinson, applying them to the text to uncover the mechanisms of communication between characters, and their manifestation of positive politeness, negative politeness, direct, and indirect strategies. The analysis seeks to demonstrate that politeness in the play transcends its linguistic dimension to reach a dramatic level, revealing structures of oppression, complicity, and resistance. It highlights how language becomes a critical tool confronting authoritarian discourse and reshaping collective consciousness. The study also aims to show how (Wannous) employs theatrical language as a form of cultural resistance, combining aesthetic and political dimensions simultaneously.

Keywords: Politeness, Strategies, Munamnamat Tarikhiyya, Saadallah Wannous.

* Postgraduate degree (PhD) – Department of Arabic Language – Faculty of Arts and Humanities – University of Tartous – Syria – Residence address: Tartous, Al-Jam‘iyya Housing District, east of the Traffic Department branch. .

مقدمة:

يُعَدُّ التأدب من المفاهيم المحورية في الدراسات اللسانية والتداولية المعاصرة، إذ يرتبط مباشرةً بعملية التواصل الإنساني وما تقتضيه من مراعاةٍ للآخر، وضبطٍ للعلاقات الاجتماعية داخل المواقف الحوارية المختلفة، فالكلام لا يُبنى على الدلالة المعجمية فقط، بل يتجاوزها إلى مراعاة السياق وإدارة المواقف التفاعلية بما يحفظ التوازن بين المتكلم والمخاطب، ومن هنا برزت إستراتيجيات التأدب بعدّها أدواتٍ لغويةً وسلوكيةً تهدف إلى تنظيم التخاطب، والحد من آثار الأفعال الكلامية المهذّدة لوجه الآخر أو مكانته الاجتماعية، وقد جعل هذا البُعد التداولي من التأدب موضوعاً خصباً للدراسة في ميادين اللسانيات التطبيقية، وعلم اللغة الاجتماعي، وتحليل الخطاب.

أدت هذه الأهمية البالغة للتأدب في الممارسة التواصلية إلى جعله أحد المفاتيح الرئيسة لفهم طبيعة اللغة البشرية بوصفها أداةً مزدوجة تجمع بين التعبير عن الذات والتكيف مع مقتضيات الجماعة، فالتأدب ليس مجرد مظهر خارجي للخطاب، بل هو مكونٌ داخلي من مكونات المعنى، يتسلّل إلى اختيار المفردات، وبناء التراكيب، وصياغة الأفعال الكلامية، وقد أدرك الباحثون منذ منتصف القرن العشرين أنّ أيّ تحليل لغوي لا يراعي هذا البعد التداولي يظل قاصراً عن الإحاطة بوظيفة اللغة في الحياة اليومية، ولهذا تحوّل التأدب من كونه قيمة اجتماعية مرتبطة بالأعراف والتقاليد إلى كونه موضوعاً علمياً تُبنى حوله النماذج النظرية وتُصاغ في ضوءه الإستراتيجيات التي تكشف عن دينامية الخطاب.

أهمية البحث وأهدافه

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يتناول أحد أبرز المفاهيم التداولية التي أسهمت في إعادة النظر في طبيعة الخطاب ووظائفه، وهو مفهوم التأدب، فدراسة الإستراتيجيات التأدبية تمكّن من الكشف عن الكيفية التي يُدار بها الحوار، وكيف تُبنى العلاقة بين المتخاطبين في ضوء التوازن بين التعبير عن الذات واحترام الآخر، وإن هذا البحث سيحاول أن يربط الظاهرة اللغوية بسياقاتها الاجتماعية والثقافية، وهو ما يُثري المقاربة اللسانية التقليدية التي كانت تقتصر على تحليل البنى الداخلية للجملة أو النص، ولذا فإن إستراتيجيات التأدب تشكل مدخلاً أساساً لفهم التواصل الإنساني في أبعاده اللغوية والاجتماعية والنفسية، سواء في الخطاب اليومي أو في النصوص الأدبية والسياسية والإعلامية.

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الغايات، أبرزها، أولاً: تحديد الإطار النظري لإستراتيجيات التأدب، عن طريق الوقوف على أهم النماذج التي صاغها علماء التداولية واللسانيات الاجتماعية، أهمهم (لاكوف)، و(ليتس)، و(براون) و(ليفنسون)، وثانياً: الكشف عن كيفية توظيف هذه الإستراتيجيات في الخطاب بوصفها أدوات لضبط التفاعل اللغوي والحد من حدة الأفعال الكلامية المهذّدة لوجهه، إلى جانب إبراز البعد الثقافي للتأدب عن طريق تتبع إستراتيجياته التواصلية.

الدراسات السابقة

مجال الدراسة في إستراتيجيات التأدب مجال جديد قياساً على الدراسات العربية، ولذلك فالأبحاث ليست بالكثيرة، وقد سبق هذا البحث مجموعة من تلك الدراسات أهمها:

١. (دراسة الأسلوب المهذب في اللغة العربية وفقاً لنظرية التأدب عند براون وليفنسون) ل(محمد علي عامري)، و(علي ضيغمي)، و(سيد رضا ميرأحمدي)، وقد أولى الباحثون في هذه الدراسة اهتماماً بالأسلوب المهذب بعدّه أحد العناصر الأساسية في تحقيق التواصل الناجح وتجنب ما يتهدده، معتمدين على نظرية (براون) و(ليفنسون) في التأدب، كونها أبرز النظريات في هذا المجال، وقد حلّ البحث أنواع الأساليب المهذبة في اللغة العربية مدعومة بأمثلة وظيفية بعد استعراض الخلفية التاريخية للتأدب في اللغة العربية وتوضيح الفرق بين (التلطيف) و(التأدب)، وذلك لتصحيح الالتباس الذي وقع فيه بعض الباحثين عند تعريف هذين المصطلحين، وأظهرت النتائج أن استخدام التلطيف يحقق التعبير الحسن، غير أنه يُستحسن استخدام التأدب وفق تصنيف (براون) و(ليفنسون) لما يحمله من دلالات لغوية دقيقة، ولكن ما يُؤخذ على هذه الدراسة أنها قصرت أمثلتها على حوارات مفترضة لا على حوارات حيّة ونماذج واقعية، مغفلةً إستراتيجيات مهمة للتأدب.

٢. (إستراتيجيات التأدب في الخطاب المسرحي "دراسة تداولية حول ثلاث مسرحيات لألفريد فرج") للباحثة (هدى عبد المحسن عبد الهادي)، قدمت الباحثة في دراستها تحليلاً لإستراتيجيات التأدب في الخطاب المسرحي، واعتمدت على نموذج (براون) و(ليفنسون) للتأدب كأحد أكثر النماذج شمولية في دراسة هذه الإستراتيجيات، وقد ركزت الدراسة على استكشاف الإستراتيجيات المستخدمة في مسرحيات (فرج)، مع تسليط الضوء على دورها في العملية التواصلية وفي تخفيف الأفعال المهذبة للوجه، إلى جانب توضيح أثر هذه الإستراتيجيات في تحقيق النتائج المرجوة للأفعال الكلامية، أي الأفعال البلاغية المقصودة، مما يعكس أهمية تطبيق النظرية التداولية لفهم ديناميات التأدب في النص المسرحي العربي، لكن الباحثة لم توضّح تأثير السياق الاجتماعي والثقافي للمسرحيات على إستراتيجيات التأدب، وهذا قد يقلل من فاعلية التحليل التداولي.

٣. (نظرية التأدب في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة) للباحث (أحمد بن غنيم بن محمد الشمري)، تناولت الدراسة تحليل مفهوم التأدب كما قدمه اللغويون الغربيون المعاصرون، مع التركيز على اهتمام اللغويين العرب بدراسة هذه الظاهرة، إذ عرضوا رؤاهم المتنوعة حول التأدب، وقدموا تطبيقات عملية لمفاهيمهم على بعض المحادثات العربية والنصوص الأكاديمية، الأمر الذي أسهم في توضيح مفهوم التأدب وأهميته في فهم النصوص الأكاديمية العربية، وتوفير أساس متين لدراسات لاحقة في المجال التداولي، على أن هذا البحث قد غلب عليه التنظير ولم يُفرد الباحث نفسه مساحة تطبيقية لكي تتضح رؤيته التداولية في إستراتيجية التأدب. وسيحاول هذا البحث أن يزيد على هذه الجهود السابقة أفكاراً متممة، وأن يوازن بين التنظير والتطبيق لكي تتوضّح أهمية الجانب التداولي للتأدب في الخطاب، خاصةً الخطاب الأدبي المسرحي.

المنهج

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي، انطلاقاً من مقارنة تجمع بين التحليل اللغوي والخلفية الدرامية للشخصيات، مركزاً على إستراتيجيات واضحة الأثر للتأدب، وهدافاً إلى الكشف عن كيفية توظيف اللغة المسرحية بوصفها وسيلة للتعبير عن طبيعة العلاقة بين أفراد الجماعة، الأمر الذي يعكس فاعلية اللغة في إعادة تشكيل الوعي الجمعي.

الأساس النظري للتأدب:

تُعدّ نظرية التأدب إحدى أهم النظريات اللسانية التداولية التي انبثقت في سياق البحث عن آليات التواصل البشري وضبطه بمقتضيات اجتماعية وثقافية تتجاوز حدود البنية اللغوية الصرفة، فقد جاءت هذه النظرية استجابةً لحاجة ملحة إلى تفسير كيفية استخدام المتكلمين للغة في مواقف التفاعل، ليس فقط من أجل تبليغ المعنى، وإنما أيضاً لصيانة العلاقات الاجتماعية، وحماية صورة الذات والآخر، ومن هنا ارتبط مفهوم التأدب بمفهوم "الوجه" (The Face)، ليتحول لاحقاً إلى محورٍ أساسٍ في الدراسات التداولية، ولا سيما في أعمال (بينيلوبي براون) (Penelope Brown) (١٩٤٤) و(ستيفن ليفينسون) (Stephen C. Levinson) (١٩٤٧).

إن هذه النظرية لا تنظر إلى اللغة بعدها أداةً للتواصل فحسب، بل وسيلة لإدارة العلاقات الاجتماعية وضبط التوازن بين حق الفرد في التعبير عن نفسه وحق الآخر في الحفاظ على مكانته وكرامته، وقد أسهمت هذه النظرية في فتح آفاق واسعة أمام دراسة الظواهر الخطابية في سياقات متعددة، سواء في المحادثة اليومية، أو النصوص الأدبية، أو حتى في الخطابات الأكاديمية والسياسية.

(لاكوف):

يُعدّ عمل روبن لاكوف (Robin Beth Tolmarch Lakoff) (١٩٤٢ - ٢٠٢٥) من المحطات المبكرة في تأسيس نظرية التأدب ضمن الدراسات التداولية، وقد عرّفت التأدب بأنه "نظامٌ من العلاقات الشخصية المصممة لتسهيل التفاعل من خلال تقليل احتمالات الصراع والمواجهة الكامنة في جميع التعاملات البشرية"^٢، ثم اقترحت (لاكوف) فكرة أن استخدام اللغة ليس محايداً، بل يخضع لقواعد غير مكتوبة تفرضها الأعراف الاجتماعية والثقافية، "قالاقتصار على صحة المعيار التركيبي لوحده، لا يفضي إلى تفسير مقبول لبعض التراكمات، ولذلك تدعو إلى ضرورة الاهتمام بسياق التلفظ، بما فيه من افتراضات منطقية وأخرى تداولية"^٣، وتضع بعد ذلك قاعدتين سمتهما: قاعدتي الكفاءة التداولية (Pragmatic Competence)، وقد تتماثلان في تأثيرهما، اعتماداً على سياق التلفظ، والقاعدتان هما^٤:

١. كن واضحاً.

٢. كن مؤدّباً.

وهذا سيحدّد على نحو واضح المفردات والتراكيب التي سيستخدمها المُخاطب إذا التزم هاتين القاعدتين أو إحداهما، وبذلك يكون للسّياق الذي يسبق التلفظ تأثير واضح على التلفظ نفسه، مع العلم أن الوضوح قد يتعارض مع التأدب وقد يتفق معه، وذلك مرهون بقصد المرسل في الخطاب.

وقد وضعت تصوراً أولياً لقواعد التأدب التي تهدف إلى تنظيم التخاطب وضمان انسجام التفاعل اللغوي، فلخصّت (لاكوف) مبادئها في ثلاث قواعد أساسية^٥:

١. قاعدة التعفف: أي تجنّب التدخل في حرية الآخر أو فرض سلوك غير مرغوب.

². Abdul-Majeed, Rufaidah Kamal, The Realization of Positive Politeness Strategies in Language: The Politeness Theory of Brown and Levinson, English Language Dept. , College of Education for Women, University of Baghdad, 2009, p5.

^٣. الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص٩٧.

^٤. يُنظر: المرجع السابق، ص٩٩.

^٥. يُنظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، ص١٠٠.

٢. قاعدة التخيير: أي إتاحة المجال للمخاطب ليختار بين بدائل مختلفة بدل تقييده بإجابات أو مواقف محددة.

٣. قاعدة التودد: أي الحفاظ على جو من الألفة والتقارب يضمن استمرار العلاقة الاجتماعية بشكل متوازن.

وقد كان لهذه المبادئ أثر بالغ في تطوير نظرية التأدب اللاحقة، خصوصاً عند (براون) و(ليفينسون)، إذ شكّلت الأساس الذي بُني عليه مفهوم (الوجه) وإستراتيجيات حمايته، وإن إسهام (لاكوف) يتمثل في لفت الانتباه إلى أن اللغة لا تُستعمل لنقل المعلومات فحسب، بل أيضاً لبناء صورة الذات الاجتماعية، وحفظ التوازن في العلاقات بين الأفراد، ولهذا كانت مقاربتها خطوة تأسيسية نقلت الدرس اللغوي من دائرة المعنى إلى دائرة العلاقات الاجتماعية وما يرتبط بها من قيم كالاحترام، والمجاملة، والاعتراف المتبادل.

(جيفري ليتش):

يُعدّ (جيفري ليتش) (Geoffrey Leech) (١٩٣٦ - ٢٠١٤م) واحداً من أبرز اللسانيين الذين عمّقوا النقاش في مجال التداوليات، إذ سعى إلى توسيع نطاق دراسة اللغة من البنية الداخلية إلى الوظائف الاجتماعية التي تنهض بها في سياق الاستعمال، وقدم (ليتش) إطاراً نظرياً يُعدّ من أهم المساهمات في دراسة التأدب (Politeness)، وذلك بصياغته ما عُرف بـ(مبدأ التأدب Politeness Principle) الذي جاء مكملاً لمبدأ التعاون عند (بول غرايس)^٦ (Grice's Cooperative Principle).

ويرى (ليتش) أنّ التفاعل اللغوي لا يمكن أن يُفهم بمجرد الاحتكام إلى مبدأ التعاون، لأن المحادثة البشرية ليست دائماً قائمة على المعلومة فحسب، بل تتداخل فيها أبعاد الانسجام الاجتماعي، وحفظ ماء الوجه، وتلطيف جدّة الأوامر أو الطلبات، فاقتراح مبدأ (اللطف) أو (التأدب الأقصى) في الفعل الكلامي^٧، وقد صاغه من صورتين متضادتين؛ الأولى خفض الأحكام غير المؤدبة، والثانية رفع الحد الأعلى للتعبير عن الأحكام المؤدبة، فيما يُعرف بـ(التأدب الأقصى)^٨، ثم وضع ستة مبادئ فرعية للتأدب، مثّلت محاولة لتقنين الإستراتيجيات التي يستخدمها المتكلم في خطابه، وهذه المبادئ هي^٩:

١. قاعدة فن التأدب: وتعني تقليل خسارة الآخر وتكثير ربحه.
٢. قاعدة السخاء: وتعني زيادة ما يعود بالنفع على الآخر، وتقليل ما يعود بالنفع على الذات.
٣. قاعدة الاستحسان: وتعني تقليل انتقاص الآخر، وتكثير تجليله.
٤. قاعدة التواضع: وتعني بفضض قيمة الذات، في مقابل رفع شأن المخاطب.
٥. قاعدة الموافقة: التي تقوم على تعزيز نقاط الاتفاق وتقليل نقاط الخلاف.
٦. قاعدة التعاطف: التي تغيد المشاركة الوجدانية والتعاطف مع مشاعر الآخر في الفرح والحزن.

^٦ يقترح (بول غرايس) (Paul Grice) (١٩١٣ - ١٩٨٨م) أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام هو (مبدأ التعاون)، وينهض هذا المبدأ على أربع مسلمات هي: مسلمة القدر: أي جعل المشاركة تفيد القدر المطلوب من الإخبار لا أكثر من ذلك، مسلمة الكيف: أي عدم قول ما يُعتقد أنه كاذب، مسلمة الملاءمة: في أن تكون المشاركة ملائمة للحوار، مسلمة الجهة: التي تعني الوضوح في الكلام بالابتعاد عن اللبس، وتحري الإيجاز. يُنظر: صحراوي، د. مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣٣ - ٣٤.

^٧ يُنظر: ابن عيسى، أ. د. عبد الحليم، *تداولية مبدأ التأدب في الفعل الكلامي*، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، الجزائر، ع١، ٢٠١٩م، ص٢٠٨.

^٨ يُنظر: ليتش، جيوفري، *مبادئ التداولية*، تر: د. عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ٢٠١٣م، ص١١٠.

^٩ يُنظر المرجع السابق، ص١٧٤.

قد تبدو بعض هذه القواعد قاسية على طرف من دون الآخر، لكنها في حقيقة الأمر ليست كذلك؛ لأن القواعد تنطبق على السامع حين يصبح متكلماً، وعلى المتكلم حين يصبح سامعاً، وغاية هذه القواعد تحصين التواصل من كل ما يتهدده.

إنّ هذه المبادئ -في مجملها- تكشف عن تصوّر (ليتش) للغة بوصفها ممارسة اجتماعية تسعى إلى تحقيق التوازن بين الأنا والآخر، فهي تعمل على تلطيف أفعال الكلام المهذّدة للوجه، وتؤسّس لنسق من التفاعل يحافظ على الانسجام الاجتماعي، ومن هذا المنظور يقدّم (ليتش) بُعداً مؤسّساً لما طرحه (براون) و(ليفنسون) لاحقاً في تنظيرهما لآليات حفظ الوجه.

يبدو أن أهمية نظرية (ليتش) تكمن في أنّها لم تحصر التأدّب في بُعد واحد، بل أبرزت تعددية القيم التي تحكم السلوك اللغوي، وبيّنت أنّ الإستراتيجيات التداولية ليست اعتباطية، بل هي خاضعة لمعايير ثقافية واجتماعية وقيمية، لذلك عدّ إسهامه مرجعاً أساساً في الدراسات اللسانية الحديثة، سواء في تحليل الخطاب الغربي أو في تطبيقات اللسانيين العرب على النصوص الأدبية والشفوية.

(براون) و(ليفنسون)

طوّرت نظرية التأدّب بمفاهيمها الحالية عام ١٩٨٧م من قبل (براون) و(ليفنسون)، ونُشرت في مقال بعنوان "الأسئلة واللباقة: إستراتيجيات في التفاعل الاجتماعي" ، إذ قدّمنا نظرياً متماسكاً جعل من مفهوم (الوجه) (The Face) محوراً لفهم السلوك اللغوي في التفاعل، وقد استلهمنا هذا المفهوم من حقل علم الاجتماع، الذي ينظر إلى (الوجه) على أنه صورة الذات الاجتماعية التي يسعى الفرد إلى حمايتها والحفاظ عليها أثناء التفاعل مع الآخرين، وهذا التعبير ليس غريباً على الثقافة العربية، لأنه يعني (ماء الوجه) الذي يرمز إلى المقام المصون للفرد.

يرى (براون) و(ليفنسون) أن كل فرد له وجهان:

١. الوجه الإيجابي (Positive Face): وهو رغبة الفرد في أن يكون محبوباً، ومقبولاً، ومقدّراً من

الآخرين.

٢. الوجه السلبي (Negative Face): وهو رغبة الفرد في الاستقلال والحرية من القيود أو التدخل

الخارجي.

وانطلاقاً من هذا التصوّر صنّفنا أفعال الكلام إلى ما قد يهدّد الوجه (Face-threatening Acts)، وما قد يعزّزه، فالأمر المباشر مثلاً يُعدّ تهديداً للوجه السلبي، لأنه يقيد حرية المخاطب، بينما النقد الصريح يُعدّ تهديداً للوجه الإيجابي، لأنه يمسّ رغبة الفرد في القبول الاجتماعي.

طوّر - بعدها - الباحثان إستراتيجيات التأدّب التي يلجأ إليها المتكلم لتخفيف حدّة هذه الأفعال، ومن أبرزها^{١١}:

١. التأدّب الإيجابي (Positive Politeness): عن طريق إظهار القبول والتقارب، مثل المدح،

والتأكيد على المشتركات، وبناء علاقات ودية.

٢. التأدّب السلبي (Negative Politeness): عبر احترام حرية الآخر وتجنّب التدخل في شؤونه،

مثل استخدام الأساليب غير المباشرة، أو التلطيف، أو الاعتذار.

¹⁰ . Alabdali, Tahani Saleh, *Revisiting Brown and Levinson's Politeness Theory: A Middle-Eastern Perspective*, Bulletin of Advanced English Studies – Vol. 2, No. 2, 2019, P73.

^{١١} يُنظر: عامري، محمد علي- ضيغمي، علي- ميرأحمدي، سيد رضا: *دراسة الأسلوب المهذب في اللغة العربية وفقاً لنظرية التأدّب عند براون وليفنسون*، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران، س ١٣، ع ٣٦٤، ص ٦٦.

٣. الإستراتيجية غير المباشرة (Indirect strategy): إذ يُلمح المتكلم ولا يصريح، فيتترك للمخاطب حرية التأويل، وبذلك يقلل من احتمالية المساس بوجهه.

٤. الإستراتيجية المباشرة (Direct strategy): وتستخدم عندما تكون الحاجة للتواصل أكثر إلحاحاً من مراعاة الوجه، كالأوامر العاجلة.

تكمن أهمية نظرية (براون) و(لينفسن) في أنها جمعت بين البعد التداولي والبعد الاجتماعي، ووضعت إطاراً شبه كوني للتأدب، وقد وجدت أن حماية الوجه حاجة مشتركة بين جميع البشر، وإن اختلفت مظاهرها عبر الثقافات، وأسهمت -أيضاً- في إثراء تحليل الخطاب في ميادين متعددة: من المحادثة اليومية، إلى النصوص الأدبية، وصولاً إلى الدراسات بين-الثقافية.

وانطلاقاً من المفهومات التي قدمتها (لاكوف)، وما قدمه (ليتش)، و(براون) و(لينفسن) سيحاول هذا البحث أن يُحلل نماذج حوارية من مسرحية (منمنمات تاريخية) للأديب السوري سعد الله ونوس (١٩٤١-١٩٩٧م)، للوقوف على أسلوب بناء اللغة في النص المسرحي عند (ونوس)، وعلى التحولات الحوارية التي يقتضيها التأدب أو التي تفرضها نوايا المتخاطبين.

إستراتيجيات التأدب في مسرحية (منمنمات تاريخية):

مسرحية (منمنمات تاريخية) (١٩٩٣م) من أهم الأعمال المتأخرة في تجربة (سعد الله ونوس) المسرحية، وهي تنتمي إلى ذلك النوع من الأدب "الذي يطالب بإعادة النظر ليس فقط بالقناعات التاريخية السائدة والمستقرة، بل ويطالب أيضاً بمناقشة المواقف الأخلاقية التي يجب أن تتسم بها السياسة"^{١٢}؛ أي المسرح الذي يوظف أدواته الفنية لإثارة وعي الجمهور ومساءلة الواقع السياسي والاجتماعي. يستند (ونوس) في هذه المسرحية إلى واقعة سقوط (بغداد) على يد المغول عام (١٢٥٨م) (٦٥٦هـ)، لكنه لا يستعيد بها بوصفها مجرد حدث تاريخي، بل يحولها إلى مرآة رمزية للواقع العربي المعاصر، إذ يكشف آليات الاستبداد، والتفكك الداخلي، والعجز أمام التهديدات الخارجية.

تتميز المسرحية ببنائها القائم على لوحات أو "منمنمات" متتابعة، تُظهر مشاهد متفرقة من حياة الدمشقيين قبيل وصول (تيمورلنك)، وتعكس حياة الأسواق والشارع، وخطاب المثقفين والعامّة، إذ تتقاطع كلها لتقدم لوحة بانورامية للهزيمة، إن هذا التفكيك السردى يسمح لـ(ونوس) بإبراز التناقضات في الخطاب السياسي والاجتماعي: لغة السلطة المتعالية، ولغة الشعب المقهور، ولغة النخب المتأزمة، وكلها تتصارع داخل فضاء واحد محكوم بانهييار وشيك.

وتكمن أهمية المسرحية في أنها لا تكتفي بإدانة الماضي، بل تُحمّل الحاضر العربي مسؤولية التواطؤ، فالمشاهد التي يقدمها (ونوس) عن التهرب من المسؤولية، أو التملق للحاكم، أو العجز عن مواجهة الخطر الخارجي، ليست سوى صور متكررة في التاريخ العربي الحديث، ولهذا فإن (منمنمات تاريخية) ليست مسرحية تاريخية بالمعنى الصريح، وإنما مسرحية سياسية رمزية تستثمر التاريخ لإعادة تقديم أسئلة الحاضر عن السلطة، والحرية، والوعي الجمعي.

^{١٢} طه، د. حنان علي، مسرحية "منمنمات تاريخية" للكاتب سعد الله ونوس: مقاربة تاريخية، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ٣٥٤ الإصدار الأول، ٢٠٢٢م، ص٨٦٨.

في مسرحية (منمنمات تاريخية) يتقاطع البعد الدرامي مع مفاهيم نظرية التأدب، إذ يكشف النص عن كيفية توظيف اللغة في إدارة السلطة والتعبير عن الخضوع أو المقاومة، فالتأدب هنا ليس مجرد سلوك لغوي محايد، بل أداة تكشف التوتر بين الهيمنة والانصياع، وبين الرغبة في حفظ الوجه أو تهديده، وهكذا تتحول اللغة المسرحية إلى مرآة لآليات التواصل في السياق السياسي والاجتماعي، وتغدو دراسة إستراتيجيات التأدب مدخلاً لفهم البنية العميقة للصراع الذي تجسده المسرحية.

١. التأدب الإيجابي:

مفهوم التأدب الإيجابي في (منمنمات تاريخية) يتجلى في سعي الشخصيات إلى الحفاظ على صورة الانسجام والتقارب فيما بينها، على الرغم مما يحيط بها من أزمات وانهيارات، فالخطاب المسرحي يكشف كيف تُستخدم اللغة لإظهار التضامن، وتوكيد الروابط، وتجميل الواقع القاسي عبر تبادل عبارات المودة أو محاولة طمأنة الآخر، إن هذه الممارسات اللغوية لا تعكس فقط رغبة الأفراد في تجنب الصدام، بل تكشف أيضاً - عن حاجتهم إلى تأكيد هويتهم الجمعية في لحظة تاريخية حرجة، ومن ثم يصبح التأدب الإيجابي في المسرحية علامة على بحث الشخصيات عن سند اجتماعي ورمزي يحفظ ماء الوجه في مواجهة الخوف والانهيار.

وهناك مُلزمات للتأدب على نحو عام، منها مراعاة الفارق الطبقي الاجتماعي، وهو ما يُلتفت إليه عند بناء أي حوار، ولا تخفى مثل هذه الأمور عند بناء الحوارات في الأعمال الأدبية، فالجندي ملزمٌ بالتأدب أمام القائد، وكذا العامل أمام صاحب العمل، والتلميذ أمام أستاذه، ولكن على الرغم من هذه الإلزامات قد لا يسلك الحوار مسالك آمنة لأن الموضوع والمحتوى لهما دور في تشكل صورة التأدب، ومن ذلك حوار شخصية (ابن خلدون) المؤرخ المشهور مع تلميذه وكتابه (شرف الدين) في هذا الموضوع من المسرحية^{١٣}:

ابن خلدون: (يُملي عليه) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم.

شرف الدين: الأمير تمر يا سيدي؟

ابن خلدون: نعم الأمير تمر.

شرف الدين: إنك تجلّه يا سيدي. ألا تصفه بالكافر أو اللعين؟

ابن خلدون: (بجدّة) لا.. لن أصفه بالكافر أو اللعين. إننا لا نكتب إنشاء وهجاء. بل نكتب تاريخاً يا شرف. وكتابة التاريخ كما قلت لك منذ لحظة لا تستقيم مع الأهواء والتحيزات. والتاريخ نفسه لا يبالي بالشتائم والمفردات الأخلاقية الشائعة.

شرف الدين: عفوك يا سيدي.. هذا درس لن أنساه.

(شرف الدين) تلميذ (ابن خلدون) وكتابه، يلزمه كي يتعلّم منه، وهذا ما يوجب على (شرف الدين) احترام الفارق الاجتماعي العلمي بينه وبين أستاذه، ولذا فهو لا يتخلى عن كلمة "سيدي" التي تحقّق شرط التأدب الإيجابي لكي ينجح التواصل وكي يكون أكثر قبولاً عند معلمه، على الرغم من وضوح اعتراضه على (ابن خلدون) في تسمية الغازي والمعتدي، لكن ثبات (شرف الدين) على نداء لقب الدرجة الاجتماعية "سيدي" يُعزّز استقرار العلاقة بينه وبين (ابن خلدون).

تعرّض هذا التواصل لخطورة إهدار ماء الوجه الإيجابي بأن ضمّن (ابن خلدون) في رده على تلميذه توبيخاً خفياً، وهي إستراتيجية التلميح في الرد، اتبعها (ونوس) لكي يحافظ على سمات شخصية الأستاذ عند (ابن خلدون)

^{١٣}. ونوس، سعد الله، منمنمات تاريخية، سلسلة روايات الهلال، دار الهلال، القاهرة، مصر، ٥٤٣ع، ١٩٩٤م، ص ٦٢.

وكي لا يهدر ماء وجه المُخاطب بالخط من شأنه وتعنيفه لأن اعتراض (شرف الدين) لا يستدعي ذلك أصلاً، ولا بد له من نظام انتقائي خاص للمفردات؛ إذ من وجوه تأثير التأدب على الخطاب أن إستراتيجية التأدب تُلزم المتكلم بنسق ما من الكلمات التي تحافظ على توازن الخطاب، لا تتبالغ في احترام المُخاطب، ولا تزدريه وتهدر ماء وجهه، وعليه (يتضمن التأدب بوصفه ظاهرة لغوية حديثة نظاماً لغوياً له طرقٌ خاصةٌ تسهم في تحقيقه؛ حيث يعتمد المتكلم إلى استخدامها بهدف الوصول إلى غاية مقصودة هي التأدب مع المُخاطب وإظهار الاحترام له)^{١٤}، وهذا ما يدعو إلى إعادة التأمل في مفردات النص بمنظور التداولية والنفعية التواصلية لا بمنظور الانتقاء الجمالي فحسب.

ومن مظاهر تأدب (شرف الدين) في الخطاب أنه بعد هذا التقرع المبطن ردّ بالقول: "عفوك يا سيدي.. هذا درس لن أنساه" على الرغم من أنه تعرّض لما يُهدر ماء وجهه، ومن المفترض أن تعرّض عنده هذه الخطورة أسلوباً دفاعياً لينفي عنه ما ينال من نباهته، على أن رد (شرف الدين) يندرج ضمن إستراتيجية تُسمى (إستراتيجية التآزر) (Solidarity strategy)؛ وهي النزوع إلى استخدام صيغ التأدب الإيجابية التي تؤكد على التقارب بين المتكلم والسامع^{١٥}، لأن (شرف الدين) يسعى إلى تكريس هوية فردية؛ هوية العالم والمؤرخ، ولا يتحقّق ذلك إلا إذا رسّخ مكانه ضمن مجتمع علمي يمثّله رجل ك(ابن خلدون)، فيصبح لزاماً عليه أن يميل إلى التلطيف والموافقة في خطابه إلى أستاذه كي يؤكّد هويته ضمن الجماعة التي يريد الانتماء إليها.

وقد يلجأ المتكلم إلى درجة أعلى من التأدب تلزمه ألفاظاً بعينها، أي عندما يلجأ إلى إستراتيجية التأدب الأقصى لمراعاة سياق الخطاب ورتبة المُخاطب، ومنه حديث (شهاب الدين) مع نائب القلعة (عز الدين أزدار)^{١٦}:

شهاب الدين: أرجوك أيها الأمير أن تتوخى الحذر. لا يجوز أن تظنّ في مقدمة الأسوار. البارحة لولا تروس الرجال، لغربلتك النبال.

أزدار: هل تريد أن أختبئ في الديوان! كيف أفقد الرجال إن لم أتقدمهم في أوقات الشدة والخطر!

شهاب الدين: لا تحتاج جدارتك أو جسارتك لتأكيد، ولو أصابك مكروه، فستقصر ظهورنا جميعاً.

السياق عاملٌ مهم عند الوقوف على مظاهر التأدب في هذا الحوار، فالمغول على الأبواب، والنفوس تتربّص ما هو آتٍ، و(شهاب الدين) معاون (أزدار) في قلعة (دمشق) يطلب من سيّده أن يتوارى عن مرمى أي خطر قد يصيبه، فيستعين بلفظ الترجي "أرجوك" كي يقنع (أزدار) بتوخى الحذر، في حين أن (شهاب الدين) معرّض أيضاً للخطر ذاته، لكنّه أثر سلامة الآخر المُخاطب على سلامته لكي يصل في خطابه إلى التأدب الأقصى مخافة أن يفهم طلبه على أنه أمر، وكان لسياق المقام ورتبة المُخاطب دور في تحديد الفعل الكلامي "أرجوك" بصفة هذا الفعل هوية للخطاب، فللسياق أهمية في إنجاز الفعل التأدبي^{١٧}، ولكن على الرغم من هذا التجلي للتأدب في خطاب (شهاب الدين) جاء رد (أزدار) استنكارياً على نحو منضبط، ليس فيه انتقاص من شخص (شهاب الدين) على قدر ما فيه امتثال للسياق النفسي المتوتر والمشحون بالقلق، وأعقب ذلك ردّ من

^{١٤}. ابن مجد الشمري، أحمد بن غنيم، *نظرية التأدب في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة*، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، طنطا، مصر، ٥٩٤، ٢٠٢٥م، ص ٤٠٨٢.

^{١٥}. يُنظر: يول، جورج، *التداولية*، تر: د. قصي العنّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م، ص ١٠٦.

^{١٦}. ونوس، سعد الله، *منمنمات تاريخية*، ص ١٥١.

^{١٧}. الميساوي، خليفة، *تحليل المحادثة في تحليل نظرية التأدب*، مجلة اللسانيات العربية، الرياض، السعودية، ع١٣، ٢٠٢١م، ص ٢٤٤.

(شهاب الدين) فيه مديح لشجاعة سيده، ليحافظ بذلك - على نسق التأدب الأقصى في خطابه نحو قائده، منساقاً بموجبات الخطاب، أما (آزدار) فكان منساقاً بموجبات الحدث.

يمكن القول إن التأدب الإيجابي في الخطاب لا يسير على نموذج محدد ومرسوم مسبقاً، بل يتبع إستراتيجية يفرضها السياق الذي يسبق فعل التلغظ، فتكون الألفاظ وليدة هذه الإستراتيجية أو تلك.

٢. التأدب السلبي:

يتجلى التأدب السلبي في المسرحية ضمن محاولات بعض الشخصيات تجنب الاصطدام المباشر مع الآخر أو تحمّل المسؤولية، وذلك عبر استخدام أساليب لغوية تتسم بالتلطيف، والتورية، والاعتذار، والالتفاف على القول، فالتأدب السلبي بذلك يعكس سعي الأفراد إلى حماية حريتهم الشخصية وتقليل التهديد الموجه إلى وجوههم أمام سلطة قاهرة أو ظرف تاريخي ضاغظ، وبهذا يصبح التأدب السلبي أداة دفاعية تكشف عن مناخ الخوف والتردد الذي يسود النص المسرحي.

وأسلوب التأدب يكون بحسب الشخصية وهويتها الاجتماعية، إذ قد لا يتطابق أسلوبان في الخطاب التأدبي، والأسلوب رهن بلغة الشخصية وثقافتها ومدى ضبطها الانفعالي أمام مخاطب، ومن ذلك أسلوب التأدب السلبي في حوار (خديجة) مع زوجها (مروان)، وهما زوجان كانا يحاولان حسم أمرهما بالسفر قبل وصول المغول إلى (دمشق)، فيبدأ حوارهما على هذا النحو^{١٨}:

مروان: هل نتكل على الله؟

خديجة: كما تريد.

مروان: لا يبدو أنك راغبة.

خديجة: لا تهتم بي. قلت لك فصل وأنا ألبس.

مروان: هل تفضلين أن نبقي؟

خديجة: أفضل ما تختاره.

مروان: أصدقيني القول. هل تريد السفر أم البقاء؟

خديجة: ألا ترعل؟

مروان: ولم الزعل؟

خديجة: أفضل البقاء.

مروان: هذا رأي أخيك.

خديجة: لا .. لا علاقة لأخي، هذا ما أشعر به. ينعصر قلبي، كلما فكرت في السفر. ومن يدري .. قد نخسر

بيتنا، والنؤل الذي هو رزقنا.

يتضح من أجوبة (خديجة) أمران: الأول هو الحفاظ على استقلالية خيار زوجها وترك الحرية له في تقرير أمر السفر، والثاني خوفها من تحمّل مسؤولية القرار، والأمران فيهما تأدب سلبي ليس معه انتهاك لخصوصية الآخر، ولكن (سعد الله ونوس) يميّز أسلوب التأدب عند (خديجة) بما يمكن أن نسميه بأسلوب (التأدب السلبي الخائف)، وهو تأدب يخفي أكثر مما يظهر، ولذلك تدرج الحوار بين الزوجين بما يشبه الاستجواب، واللافت في طريقة (نوس) أن التأدب

^{١٨}. ونوس، سعد الله، *منمنمات تاريخية*، ص ٢٠، ومن المهم الإشارة إلى أن بعض الكلمات أو التراكيب تأتي مخالفة للقاعدة اللغوية لكن البحث لا يستطيع التصرف بها التزاماً بأمانة النقل.

عند (خديجة) بالحوار تحوّل من تأدب سلبي إلى إهدار ماء الوجه الإيجابي؛ وبيان ذلك أن أول جواب لها كان "كما تريد"، وآخر جواب حاسم كان "أفضل البقاء"، فكان التحول من احترام استقلال زوجها في القرار إلى رغبتها في البقاء، وأعقب هذه الرغبة بيان تفضيل بقائها بأنها تخاف على النول وعلى المنزل، وكأنها تلمح إلى تهوّر القرار عند (مروان)، وهذا فيه تهديد للوجه الإيجابي في سياق التأدب؛ أي إنه لم يحسن الاختيار.

هذا الأسلوب من التأدب لا تميّزه اللغة بقدر ما يميّزه مراعاة سياق القول وقدرة الشخصية على التخاطب بحسب ما يحقق لها هذا التخاطب من مصالح وغايات، "ولا يتحقق التأدب في الخطاب بالتمكن من اللغة وقواعدها الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية فحسب، بل يرتهن بالتمكن من أشكال تأليف الأقوال بحسب الأحوال التي يجري فيها الكلام، والمعرفة بالمقتضيات التعبيرية ذات الطابع التأديبي"^{١٩}، ويكون قياس جدوى بناء الحوار السابق على هذا الأسلوب من التأدب بأن يتخيّل القارئ أن (خديجة) قد باشرت زوجها بالإجابة "أفضل البقاء"، عندها سيختل توازن الشخصيات، وسيتضح التعارض بينها وبين سياق الحدث، فالتأدب عنصر فاعل في هندسة بناء الحوارات وتسلسل الخطاب في النص.

ومن إستراتيجيات التأدب السلبي في المسرحية عند (ونوس) المراوحة بين المباشرة وعدم المباشرة، أو بين الطلب وعدم الطلب، فالشخصية تريد أمراً واضحاً لكن من غير طلب، لكن المخاطب يفهم هذه الرغبة على أنها طلب قد يواجه بالرفض فيحصل تهديد لماء الوجه، ومثاله حوار بين رجل حلبي هرب من فتك (تيمولنك) بأهل (حلب)، وتاجر مستغل اسمه (دلامة)^{٢٠}:

الحلبي: قيل لي إنك عظيم الغنى

دلامة: لا غني إلا الله سبحانه وتعالى. والناس تحب المبالغات.

الحلبي: لم أسأل أحداً عن أغنياء البلد إلا ذكر اسمك.

دلامة: وفيهم يهكم هذا الأمر؟

يقول الحلبي قوله وفي نفسه أمر ما، و(دلامة) فهم هذا القول فدفع عنه تهمة الغنى بأن الناس تبالغ، وربما كان على الحلبي أن يفهم من دفع الشبهة أن (دلامة) يغلق باب إجابة أي طلب، ويحاول حماية وجهه من خطر إهدار مائه، لكن الحلبي أعاد عليه أن الناس مجمعة على يسر حاله، وعندها ظهر غضب (دلامة) من إلحاح الحلبي على المعلومة المزعجة.

يُلاحظ أن الحلبي في جملته الثانية لم يقدم معلومة جديدة عن الأولى حتى يغضب (دلامة)، لكن الغضب كان نتيجة التكرار والإلحاح، وأسلوب الحلبي كان فيه مخاطرة إهدار ماء الوجه السلبي لأنه اتبع إستراتيجية في الطلب تقوم على عدم المباشرة العرفية^{٢١}؛ إذ إن هذه الإستراتيجية فيها تعبيرات وتراكيب غير مباشرة الطلب، لكنّ كثرة استخدامها، والسياق الذي تُستخدم فيه تلك التعبيرات جعلها دلالتها واضحة ومرماها محدّد، ومن اللافت أنه ليس فيها إهدار كامل لماء وجه المخاطب لأنها ليست طلبية ولا تتضمن أفعالاً كلامية، ولكن تنطوي على خطورة انهيار التواصل في العملية التخاطبية.

^{١٩}. ابن عيسى، أ.د. عبد الحليم، *تداولية مبدأ التأدب في إنجازية الفعل الكلامي*، ص ٢٠٠.

^{٢٠}. ونوس، سعد الله، *منمنمات تاريخية*، ص ٤٦.

^{٢١}. يُنظر: عبد الهادي، هدى عبد المحسن، *استراتيجيات التأدب في الخطاب المسرحي "دراسة تداولية حول ثلاث مسرحيات لألفريد فرج"*، مجلة بحوث الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ١٠٢٤، ص ١٣٠.

من الواضح أن التأدب السليبي عند المتكلم يستعين بإستراتيجيات تعتمد على سياقات تحيط بفعل التكلم، وعلى أخرى تسبق فعل التكلم ولها ارتباط بالمعهود والمعروف عند استخدام بعض الجمل، ويبقى هدف هذه الإستراتيجيات أن تحقق غرض المُخاطب من دون انتهاك لخصوصية المُخاطب، ولكن على مستويات مختلفة من الخطورة.

٣. الإستراتيجية المباشرة:

في (منمنمات تاريخية) يظهر الأسلوب المباشر عندما تُستخدم اللغة بلا أي تلطيف أو مراعاة للوجه، في صيغة أوامر، أو تهديدات، أو اتهامات صريحة، وتكشف هذه الإستراتيجية عن طبيعة العلاقة السلطوية القائمة على القهر، إذ لا يرى المتكلم حاجة إلى إخفاء مقصده أو تجميل خطابه، وإن حضور الأسلوب المباشر في المسرحية يعبر عن انكشاف البنية السلطوية، ويجعل من الخطاب ذاته أداة لإنتاج الخوف وترسيخ الهيمنة.

ومن دواعي هذه الإستراتيجية أنها تكون صادرة من أعلى إلى أدنى، يحاول فيها الأدنى أن يُلطّف من حدّة الخطاب خوفاً على غايته من مكروهه، فيستعين ببعض أساليب التأدب أمام متكلم لا يعنيه اتباع هذه الأساليب، وأمثلة ذلك كثيرة في المسرحية ومنها حوار (محمد بن أبي الطيب) مع (أزدار)، و(ابن أبي الطيب) رجل لم يكن على وفاق مع السلطة قبل وصول المغول، لكن العدو على الأبواب ويريد أن يكون مع السلطة صفّاً واحداً أمام خطر محقق بهم، فيطلب السلاح من (أزدار) لكن (أزدار) لم ينس تمرد (محمد بن أبي الطيب) فيما سبق فيجري بينهما حوار، منه هذه القطعة^{٢٢}:

أزدار: أتطلب السلاح لك؟

محمد: لي وللرجال من قرابتي.

أزدار: وهل يحق لمثلك أن يطلب السلاح.

محمد: يوم سمعت مناديك..

أزدار: نعم.. نعم. سلّحت الناس، وأسلّحهم. ولكن ذلك لا يشملك.

محمد: ألسنت من البلد وناسها؟

أزدار: لا يسلّح المرء أعداءه.

محمد: سامح الله الأمير. أتساوينا بالأعداء؟ في الملمات ينسى الأهل ما يفرق بينهم ولا يبقى إلا حنين الدم للدم.

أزدار: وأين كان حنين الدم للدم حين جاهرت بعداوتك للسلطان، وأيدت متأمراً أشعل الفتنة، وأراد أن يغتصب

السلطة؟

لا يجد (أزدار) نفسه مُلزماً بالتأدب في خطابه إلى رجل من العامة أمامه، لأنه يعلم جيداً أن سلطته الفوقية تعفيه من ذلك من دون أن يتأثر المُخاطب بالتجريح كما لو أن من يكلم هذا المُخاطب رجلاً مثله من عامة الناس، وما يزيد من مباشرة (أزدار) وحدّة خطابه أن المُخاطب كان مناوئاً للسلطة التي يمثلها (أزدار)، فأسبابه أقوى كي يتخلى عن تأدبه ويهدر ماء وجهه مخاطبته، أما (ابن أبي الطيب) فيعني أنه لا بد من الالتزام بالتأدب أمام (أزدار)، ولا شيء يعفيه من ذلك وإلا كان في تخليه عن التأدب خطر على حياته.

لكن هناك ملامح للتأدب في حوار (أزدار)؛ وذلك أنه أمام خيارات أفسى بكثير من إفساح المجال لـ(ابن أبي الطيب) للمجادلة والكلام، ومنها السجن أو النفي أو الإحجام عن المقابلة على أقل تقدير، وربما استقبل (ابن أبي الطيب) هذه البادرة بأن تحمّل حدّة كلام (أزدار) ولم ينسحب أو يشعر بإهدار ماء الوجه على نحو كامل، بل كان يتبع

^{٢٢}. ونوس، سعد الله، منمنمات تاريخية، ص ٥١.

أسلوب التلطيف باستخدام عبارات: "سامح الله الأمير"، و"لا يبقى إلا حنين الدم للدم"، وفائدة هذه العبارات أنها تسبق أي حجة قد يستقوي بها المتكلم على من يجادله، فتحمي الحوار من خطر إهدار ماء الوجه، "ومن المفيد في تأدب المتكلم مع المخاطب إشعاره بأنه على وعي ودراية كاملة بما تتطوي عليه منطوقاته وأفعاله الكلامية من تهديد لماء وجه المخاطب وأنه لا يتعامل معها -وما تشمله من انتهاكات في حق المخاطب- باستخفاف"^{٢٣}، وهذا ما أطال من عمر هذا الحوار بينهما في المسرحية إلى أن انتهى برفض تسليح (ابن أبي الطيب)، يقول (آزدار)^{٢٤}:

آزدار: لا أريد نجدة الخونة والمتآمرين.

محمد: والله إن رجالاً فيهم حمية ورأي خير لك من العبيد.

آزدار: لا تتجاوز حدك، واخرج قبل أن أغضب.

محمد: لا بأس أيها الأمير.

(يتراجع منسحباً)

آزدار: الزموا بيوتكم واحذروا، فلن أكون رحيماً لو بدر منكم شغب.

محمد: سمعاً وطاعةً أيها الأمير.

إن الإستراتيجية المباشرة التي يتبعها (آزدار) في هذا الحوار المحتدم تحمي مقامه وهيبته أمام رجل من خارج دائرة السلطة، وفيها رسالة دلالتها أن القبول بالحوار ليس ضعفاً أو تنازلاً، وعليه لا تنحصر الإستراتيجية المباشرة عند (آزدار) برغبة إهدار ماء الوجه والحط من قدر محاوره، بل تعزز من حاجيته في الرد، وإلا لما احتاج إلى تقديم الأدلة على مناوأة (ابن أبي الطيب) للسلطة فيما سبق، وكان استخدم سلطته الزمنية بإصدار حكم قاس قد يصل إلى القتل، وقد يكون من المفارقة أن يلتمس القارئ في إستراتيجية (آزدار) تلطيفاً، لأن (آزدار) يعلم مسبقاً أن (ابن أبي الطيب) سيقبل منه حدة الأحكام كالخيانة والتمرد بمجرد أن قبل بمقابلته، وهنا "تدرك أن استعمال الإستراتيجية المباشرة ليست عجزاً أو دلالةً على سطحية المرسل، بل هي مؤشر على كفاءته التداولية"^{٢٥}، فليس غريباً -بعد ذلك- أن ينهي (ونوس) الحوار بينهما بهدوء أمر (آزدار) أن يلزموا البيوت، وبسكينة السمع والطاعة من (ابن أبي الطيب)، وكأن (آزدار) لا يريد -بعد سيل اتهاماته- إلا سلامة (ابن أبي الطيب) وأهله، ولا يريد (ابن أبي الطيب) إلا السمع والطاعة.

على أن القارئ لا يتخيل أن (ابن أبي الطيب) قد اقتنع بحجاج (آزدار) بخفة وسذاجة، لكنه مضطّر للانصياع والموافقة والتلفظ بعبارات "لا بأس أيها الأمير"، و"سمعاً وطاعةً أيها الأمير"، خوفاً من التماذي في الجدل بعد انكشاف غضب (آزدار)، وذلك الانصياع والتوافق هو ما يمكن تسميته ب(الاتفاق الزائف)^{٢٦}، الذي ينتج عن تحريف المتكلم لقناعته الشخصية تجنباً للخلاف.

^{٢٣} عبد الهادي، هدى عبد المحسن، إستراتيجيات التأدب في الخطاب المسرحي "دراسة تداولية حول ثلاث مسرحيات لألفريد فرج"، ص ١٥١.

^{٢٤} ونوس، سعد الله، منمنمات تاريخية، ص ٥٣-٥٤.

^{٢٥} الشهري، عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، ص ١٢٣.

^{٢٦} يُنظر: عبد الهادي، هدى عبد المحسن، إستراتيجيات التأدب في الخطاب المسرحي "دراسة تداولية حول ثلاث مسرحيات لألفريد فرج"، ص ١٢١.

يبدو أن استعمال الإستراتيجية المباشرة يحافظ على قدر من التأدب يضمنه السياق، وتصونه قدرة المتلقي على فهم أغراض المرسل من استخدام هذه الإستراتيجية، ومن الواضح أن الاستعانة بها لازمة في بعض السياقات الاجتماعية.

٤. الإستراتيجية غير المباشرة:

تتجلى الإستراتيجية غير المباشرة ضمن المسرحية في لجوء بعض الشخصيات إلى التلميح والقول الموارب بدل التصريح المباشر، خاصة حين تكون الحقيقة صادمة، وخطيرة على حسن سير التواصل، فتعتمد الشخصية إلى التلميح بالسخرية-مثلاً- كونها جواباً مناسباً للسياق، فهذه الإستراتيجية تعبر عن وعي الشخصيات بخطورة الموقف السياسي والاجتماعي، وعن محاولتها تمرير المعنى من وراء ستار لغوي يحفظ سلامتها، وبهذا تغدو اللغة في المسرحية حيلة بقاء، تستخدم الغموض والالتفاف لتجنب الصدام، ما يعكس عمق الخوف والتوجس الذي يسكن الخطاب في المسرحية. تحضر الإستراتيجية غير المباشرة عن طريق التلميح، وتزرع الشخصية إلى هذا النوع من التأدب في ظروف عديدة، قاسمها المشترك خطورة الموقف والقلق، لأن المستعين بهذه الإستراتيجية يحتمي بالتأدب حذر تقاوم الخطورة واحتدام الموقف، ومن ذلك حديث (خديجة) و(مروان) عندما كانا عازمين على السفر هرباً من المغول، تقول (خديجة)^{٢٧}:

خديجة: الصرة جاهزة، وفيها كل ما يمكن أن نحملة.

مروان: نعم.. السفر أفضل من البقاء. القادم من حلب قال لنا: تلك هي النصيحة. نعم.. علينا أن نتوكل على

الله ونسافر. ألم تنس شيئاً؟

خديجة: كم مرة تفقدنا الصرة!

مروان: كأنك غاضبة.

يبدو أن الحوار عادي وهادئ وسلس لولا جملة "كم مرة تفقدنا الصرة!" التي شابت الحوار بشيء من التوتر والقلق، وهذا الحوار هو تتابع لحوار سابق أدرجه البحث في موضع سابق كانت فيه (خديجة) مترددة في اتخاذ قرار السفر، تاركة حسم الأمور لزوجها (مروان)، ومن الواضح أن استفهام (خديجة) عن تفقد الصرة هو استفهام صوري، لا يلزم عنه جواب عن عدد مرات تفقد الصرة، فالقصد هنا ليس حرفياً، بل قصدها استلزامي؛ أي إن الاستفهام يستلزم جواباً يفهمه المُخاطَب بشرط فهمه لمقام القول، ودليل ذلك أن (مروان) أجابها: "كأنك غاضبة"، لأنه استقبل قصدها استقبالياً جيداً، وفهم أنها استعانت بالتلميح للتعبير عن غضبها من تردده في حسم أمر السفر، وكأن تأدبها ستارٌ يخفي غضبها وإحباطها للذين لا تستطيع التعبير عنهما بالقول صراحة: أنا لا أوافقك الرأي على السفر.

هذا ما يمكن تسميته بالقوة الإنجازية للمعنى عن طريق التلميح، وهي قوة مستلزمة متعلقة بالمقام؛ إذ لا يمكن توليدها إلا في طبقات مقامية معينة^{٢٨}، واتضح رغبة (خديجة) بالبقاء يدعو إلى إعادة النظر والتأمل في جملتها "كم مرة تفقدنا الصرة" على أنها جملة تسبق الطلب، وتخفي ميلاً للاستقرار، وهو ما يصح الإشارة إليه بـ(الطلب القبلي) (Pre-request)^{٢٩}، الذي يساعد على حفظ ماء وجه الآخر عند الحاجة إلى إنجاز فعل مشترك، فيتقادم المتكلم المخاطرة بإهدار ماء وجهه أو ماء وجه الآخر بأن يعطي المُخاطَب فرصة كي يبين موقفه من غير تصريح بالرفض، كما كان الأمر مع (خديجة) عندما لم تعبر عن طلبها حرفياً لكن (مروان) قد فهم طلبها من غير تصريح به.

^{٢٧} ونوس، سعد الله، *منمنمات تاريخية*، ص ٢١.

^{٢٨} يُنظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر، *إستراتيجيات الخطاب*، ص ١١٧.

^{٢٩} يُنظر: بول، جورج، *التداولية*، ص ١٠٧-١٠٨.

وهناك نوع من التأدب في الإستراتيجية غير المباشرة يقوم على آلية السخرية والتهكم، وغالباً ما يكون التأدب في هذا النوع تأدباً زائفاً، ومثاله الحوار بين (مروان) و(دلامة) التاجر اللئيم الذي يستغل غزو المدينة لكي يشتري أغراض الناس بأبخس الأثمان اضطراراً منهم إلى جمع المال لكي يدفعوا بها إلى (تيمورلنك)، يقول (مروان)^{٣٠}:

مروان: أعرض عليك قطعاً من الحرير نسجتها بروحي. إنها قطع لن تجد لها مثيلاً في دمشق.
دلامة: يا مروان، يا حبيبي.. أنا لا أعرف أن الروح تتسج. هذه قطع من القماش، ولن أَدفع فيها إلا السعر الذي تعلمه.

مروان: إنك تبخسني حقي. إنك لا تدفع عشر ثمنها.

دلامة: وأنا لا أجبرك على البيع.

يستخدم (مروان) عبارات مخصوصة لكي يسوق منتجته ويجعله قابلاً للبيع بسعر جيد: "نسجتها بروحي"، و"لن تجد لها مثيلاً في دمشق"، لعلمه مسبقاً أن (دلامة) سيبخس من ثمن الحرير، لكن (دلامة) قابل هذا التسويق اللطيف بتأدب مصطنع ومزيف باستخدام النداء "يا مروان"، ولفظة التحبب "يا حبيبي"، وصيغة النداء مع لفظة التحبب قد يكونان أسلوباً للتأدب على نحو مجرد من السياق، لكنهما في سياق مقام الحوار السابق، وضمن طبيعة العلاقة بين (مروان) و(دلامة) ليسا إلا أسلوباً زائفاً للتأدب، وانحرافاً عن صيانة العلاقة التواصلية بين متخاطبين، إذ يتعلق الأمر بالمؤثرات السياقية في إنجاز أي فعل تأدبي^{٣١}، والسياس في الحوار هو سياق استغلال صريح من (دلامة)، وذلك بإصراره على دفع الثمن البخس الذي عرضه.

طبيعة المشهد التأدبي في الحوار السابق هو مواجهة بين تأدب عرض المنتج عند (مروان)، ووضاعة العرض عند (دلامة)، لكنها ليست وضاعةً تصريحية، بل كانت تلميحية استعانةً بالتأدب المقنع الذي تفضحه النبرة الساخرة في "يا حبيبي"، إذ (مروان) ليس صديقه الحبيب، ولا قريبه المصون، ومما زاد من زيف التأدب عند (دلامة) أنه قال: "وأنا لا أجبرك على البيع"، مع علمه أنه يجبره على البيع حقاً، وذلك لما سبق لديه من خير أن الناس مجبرون على دفع المال للمغول وليس لهم إلا بيع مقتنياتهم لأول مشترٍ يقبل بالدفع، فعبارة (دلامة) السابقة عبارة تأدبية تحريفية؛ يبدو من شكلها أنها تأدب سلبي، يحترم خصوصية الآخر، لكن في مضمونها الإيحائي انتهاكاً للتأدب وإهدار لماء الوجه عند المُخاطب، و(ونوس) يعلم جيداً أن شخصية (دلامة) ليست بحاجة إلى الغضب لكي تهدر ماء وجه غيرها، بل كل ما تحتاجه هو ذلك المستوى من نبرة اللؤم الهادئ المقنع بشكل لغوي من التأدب المزيف الذي تتبطنه السخرية كما في عبارة "أنا لا أعرف أن الروح تتسج".

يتضح أن الإستراتيجية غير المباشرة لها أثر فاعل في صيانة العلاقة وتحقيق التأدب المطلوب من جهة، وفي إهدار ماء الوجه وزيادة مخاطر انهيار التواصل من جهة أخرى، لما لها من آليات التلميح والاستبطان والإيحاء بدلالات عرفية تختلف عن الدلالات الحرفية.

^{٣٠}. ونوس، سعد الله، منمنمات تاريخية، ص ١٦٢.

^{٣١}. الميساوي، خليفة، تحليل المحادثة في تحليل نظرية التأدب، ص ٢٤٤.

خاتمة:

يخلص هذا البحث إلى أن نظرية التأدب -بوصفها إحدى أهم النظريات التداولية المعاصرة- بوسعها أن تتجاوز حدود الدراسة اللسانية لتصبح أداة نقدية فعالة في تحليل الخطاب الأدبي، لما تنطوي عليه من اهتمام بالعلاقات الإنسانية التي تتجلى عبر اللغة، وقد تبين أن مفاهيم (لاكوف) و(ليتشر) و(براون وليفنسن) قدّمت إطاراً معرفياً متماسكاً لفهم آليات السلطة والهيمنة والاختلاف داخل التفاعل اللغوي، سواء في الواقع أو في النص الأدبي.

وبعد تطبيق هذه النظرية على مسرحية (منمنمات تاريخية) ل(سعد الله ونوس) ظهر بوضوح أن الخطاب المسرحي لا يُبنى فقط على الصراع السياسي الظاهر، بل على شبكة معقدة من الإستراتيجيات اللغوية التي تعكس التوتر بين الرغبة في حفظ ماء الوجه والخوف من تهديده، فقد اتخذ التأدب الإيجابي في المسرحية شكلاً من أشكال البحث عن التضامن والوهم الجماعي بالأمان، اعتماداً على إستراتيجية تستمد ألفاظها من سياق الحدث، لكن كانت الإستراتيجية الواضحة في التأدب السلبي الاعتماد على السياق الذي يسبق فعل التلطف وعلى المعنى العرفي المعهود، أما الإستراتيجية المباشرة في المسرحية فاعتمدت على قدرة المتلقي في عملية الفهم، محافظة على سوية من صيانة ماء الوجه عند المُتخاطَبين، في حين مثلت الإستراتيجية غير المباشرة لغة التلميح واستبطان المعنى، بالاستناد إلى آلية تلميحية سماها البحث (التأدب المزيف) مستعينة بطريقة السخرية والاستخفاف، إذ لجأت إليها بعض الشخصيات لتحقيق أكبر منفعة ممكنة من التواصل.

وفي ضوء ذلك، يمكن القول إن نظرية التأدب تمثل جسراً بين اللسانيات والنقد الأدبي، لأنها تمنح الباحث أداة دقيقة لرصد المحتجب خلف الكلمات من مواقف وتوترات ودلالات، وكان من شأن تطبيقها على مسرح (ونوس) أن أبرزت الوعي اللغوي والفكري الذي يميز تجربته، إذ تتحول اللغة من وسيلة تواصل إلى أداة مساءلة للعقل العربي، ومن خطاب أدبي إلى موقف فكري وحضاري يطرح أسئلة السلطة والحرية والكرامة.

المصادر والمراجع:

١. ابن عيسى، أ. د. عبد الحليم، *تداولية مبدأ التأدب في الفعل الكلامي*، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، الجزائر، ١٤، ٢٠١٩م.
٢. ابن محمد الشمري، أحمد بن غنيم، *نظرية التأدب في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة*، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة طنطا، طنطا، مصر، ٥٩٤، ٢٠٢٥م.
٣. الشهري، عبد الهادي بن ظافر، *إستراتيجيات الخطاب*، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
٤. صحراوي، د. مسعود، *التداولية عند العلماء العرب*، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
٥. طه، د. حنان علي، *مسرحية "منمنمات تاريخية" للكاتب سعد الله ونوس: مقاربة تاريخية*، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ٣٥٤، الإصدار الأول، ٢٠٢٢م.

٦. عامري، محمد علي - ضيغمي، علي - ميرأحمدي، سيد رضا: دراسة الأسلوب المهذب في اللغة العربية وفقاً لنظرية التآدب عند براون ولينسون، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران، س١٣، ع٣٦.
٧. عبد الهادي، هدى عبد المحسن، إستراتيجيات التآدب في الخطاب المسرحي "دراسة تداولية حول ثلاث مسرحيات لألفريد فرح"، مجلة بحوث الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ع١٠٢.
٨. ليتش، جيوفري، مبادئ التداولية، تر: د. عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ٢٠١٣م.
٩. الميساوي، خليفة، تحليل المحادثة في تحليل نظرية التآدب، مجلة اللسانيات العربية، الرياض، السعودية، ع١٣، ٢٠٢١م.
١٠. ونوس، سعد الله، منمنمات تاريخية، سلسلة روايات الهلال، دار الهلال، القاهرة، مصر، ع٥٤٣، ١٩٩٤م.
١١. يول، جورج، التداولية، تر: د. قصي العتّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

المراجع الأجنبية:

1. Abdul-Majeed, Rufaidah Kamal, *The Realization of Positive Politeness Strategies in Language: The Politeness Theory of Brown and Levinson*, English Language Dept., College of Education for Women, University of Baghdad, 2009.
2. Alabdali, Tahani Saleh, *Revisiting Brown and Levinson's Politeness Theory: A Middle-Eastern Perspective*, Bulletin of Advanced English Studies – Vol. 2, No. 2, 2019.